سينما

«سانتوش» للهندية ساندیا سُوري

حبكة سينمائية متعدّدة الطبقات

جذب «سانتوش» لساندیا سوري الانتباه في «نظرة ما 2024»، وفي مهرجانات أخرى، رغم كونه أوّل فيلم لمخرجته الهندية كاتبة السيناريو أيضاً

محمد هاشم عبد السلام

لسنوات طويلة، غابت السينما الهندية، الفنية أو المستقلّة، عن المحافل السينمائية الدولية، وظلّ حضورها نادراً في المهرجانات الكبرى، أو غير لافت للانتباه، رغم التاريخ العريق والأسماء اللامعة في مختلف جوانب الصناعة. هذا العام شهد حضوراً قوياً لها بأكثر من فيلم روائي طويل، إضافة إلى أفلام قصيرة ووثائقية وتحريك، اتّسمت موضوعاتها بجرأة وعمق معالجة وطرح، وتوفّرت على جماليات فنية ملحوظة.

أكثر ما يلفت الانتباه حضور مخرجات هنديات، تُوِّج بحصول بايال كاباديا على الجائزة الكبرى لمسابقة الدورة الـ77 (14 ـ 25 مايو/ أيار 2024) لمهرجان «كانّ» عن «كلّ ما نتخيّله كضوء» (العربي الجديد، التاسع من يونيو/ حزيران 2024). في الدورة نفسها، جذب «سانتوش» لساندیا سُوري الانتباه في «نظرة ما»، وفي مشاركته في مهرجانات أخرى، رغم كونه أول فيلم لمخرجته، المتمكّنة من الكتابة واختيار مواقع التصوير وإدارة الممثلين، وجوانب إخراجية مختلفة، ما يؤكّد موهبتها وحِرفيّتها ومستقبلها الواعد.

من ناحية الموضوع، لم يحد «سانتوش» كثيراً عن سمات أغلب الإنتاجات الهندية الفنية الأخيرة: ابتعاد مُتعمّد عن النمط البوليودي والميلودرامات الهندية المعتادة، وجرأة في تناول موضوعات بالغة الحساسية في المجتمع الهندي، كالفقر والتفاوت الطبقي والطائفية والفساد والتمييز الديني ومشاكل المرأة. وهذا بوعي وفنّيات وجماليات ابتعدت عن المُباشرة والتسطيح والإثارة المجانية. فيه، تُلاحَظ جرأة التناول وذكاء المعالجة، بالتركيز أساساً على الفساد عامة، والتخاذل والتواطؤ في جهاز الشرطة، لا سيما في الأرياف والمناطق الفقيرة النائية. والأبرز: خروجه عن المُعتاد، بفضحه أفراد الشرطة النسائية. استغلالاً لثغرة في القانون، تضطرّ الأرملة الشابة سانتوش (شاهانا غوسوامي)، لضغط متطلّبات عيش وصعوبات حياة، إلى أنْ ترث مهنة زوجها الراحل. فجأة، من دون استعداد، تقبل أنْ تَحلّ محلّه بين عناصر الشرطة المحلية، في منطقة ريفية شمالي الهند. سريعاً، تجد نفسها وسط عالم تحاول في البداية التعرّف إليه، ثم تحتاط وتكون حذرة ومتحفّظة، كي لا تغرق في مستنقعه. لكنّ هذا العالم يجذبها إليه تدريجياً بقوّته الرهيبة، التي تستحيل مقاومتها. وهذا يُتيح لساندیا سوري فرصة استعراض خبايا هذا العالم المغلق، وسلوكياته الشائنة والمُدانة، من دون افتعال، وبمصداقية شديدة تلامس أحوال الشرطة وسلوكياتها في الهند، وفي العالم. بحِرفية شديدة، وعبر حبكة درامية وحوارات مكتوبة جيداً، تُقدِّم سانتوش وتطوّر مسار حياتها، والتغيّرات التدريجية التي تطرأ على شخصيّتها، وتمزّقها الداخلي بين نزاهتها ويقظة ضميرها وإنسانيتها، وانزلاقها من دون وعي وانتباه وإرادة إلى المستنقع، والتورّط في فساده وإجرامه. في البداية، لم تتوقّع أنْ تتلقّى رشوة صغيرة مقابل تستّرها على لقاء غراميّ، لكنها تُفاجأ به وتقبله بابتسامة حائرة، وشبه مقتنعة.

بداية مفاجئة ستكون مقدمة لرصد تحوّلها التدريجي، هي التي تجهد في عملها، وتطبيق القانون قدر المستطاع، ووفقاً للإمكانيات والصعوبات والتوترات العرقية والدينية والطائفية، وللتفاوت الاجتماعي في البيئة المحيطة بها. نقطة الانقلاب مشاركتها في التحقيقات الجنائية للإيقاع بالشاب المسلم سليم (أرباز خان)، المشتبه بارتكابه جريمة قتل واغتصاب وتعذيب صبية من طائفة الـ«داليت» في قرية. غرض سعيها الحثيث الإمساك به، وتقديمه إلى العدالة، والاقتصاص منه لأجل الفتاة المغدورة وأهلها المكلومين، والتعويض عن تقصير جهاز الشرطة وتقاعسه في البحث عنها وإنقاذها، خاصة أنّ والدها عبّر عن خشيته من غيابها قبل وفاتها.

نجاح سانتوش في الإيقاع بالشاب بداية انقلاب وتطوّرات مفاجئة لأحداث تتعقّد في النصف الثاني من الفيلم، خاصة مع اتّضاح حقيقة ما جرى، ما يضعها، هي المُشاركة في انتهاكات، أمام ما يجري في أقسام الشرطة وسلوكياتها، وعلى من يُطبّق القانون، ولمن ينحاز، ما وضعها أمام نفسها، وضرورة اتّخاذها قراراً أخلاقياً . إنسانياً حاسماً: المواصلة، أو الفرار من هذا المستنقع الذي سيجرفها من دون شكّ إلى فظائع، وربما جرائم أخرى، مُستقبلاً.

بحبكةٍ متعدّدة الطبقات كهذه، ومُعقّدة في رسم الشخصيات ونسج الخيوط، صوّرت ساندیا سُوري ببساطة ومن دون حذلقة وافتعال مدى تعقّد وتشابك العلاقات وتركيبتها الغريبة في المجتمع الهندي، خاصة تلك المتجذّرة في الريف الهندي، وكيف تبدو وفقاً للأحداث عصية على الحلّ والمعالجة والتغيير، في ظلّ جهاز تنفيذي يعمل على ترسيخها. في الوقت نفسه، هناك بناء درامي خطي مُثير ومُشوّق وسريع، مع صعوبة توقّع الأحداث وتطوّرها، وردود فعل الشخصيات. الأداء المتمكّن والمتّزن بإدارتها أكسب الشخصيات عمقاً ومصداقية وإقناعاً. زادت هذا كلّه الخلفية العامة، والبيئة المحيطة بالأحداث وسياقاتها، التي سَهّلت رصد هذه التفاوتات، ومدى بؤس حياة فئات عريضة في مجتمع هائل، على قدر كبير من التعدّدية والتقدّم والتطوّر، الذي له أيضاً وجهٌ آخر، وقاعدة عريضة غير مرئية ومقموعة ومُهملة ومسلوبة الحقوق وأبسط مقوّمات الحياة.

> جذب «سانتوش» لساندیا سُوري الانتباه في «نظرة ما»

تصويرٌ سينمائيٌّ لتعقّد العلاقات في المجتمع الهندي

ريبورتاج سريع ينقذه الغناء من الملل

فيلم وثائقي فقير بلغته السينماتوغرافية

محمد بنعزيز

هذا الوثائقي سيرة شابّةٍ، حقّقت حلمها بأنْ تُصبح نجمة عالمية. يرصد سيرة عمل في عمر طويل. في «أنا سيلين ديون» (2024)، لإدين تايلود برودسكي، شرحٌ مُبهج للعمل مع الآخرين لتحقيق نجاح مُستدام لا مؤقّت. فديون قدوة لملايين النكرات. ما الثمن الذي ينبغي دفعه لتجسيد هذا الشغف؟ فنانة تصنع أشياء جميلة لم تطق أنْ يصدر عنها صوت نشاز، احتراماً للجمهور. اكتشفت بشاعة صوتها بعد المرض، فعزّت نفسها: «كنت فنانة رائعة». كي لا يضيع هذا المسار العظيم، يعرض الوثائقي كيف تخصّص الفنانة وقتها كلّه للتمرّن: تغنّي وتُشخّص المشاعر التي ستجسّدها. يأتي كتّاب ومخرجون وأطباء وممرضات إلى منزلها. يدلّل الأغنياء أجسادهم. صار الجسد أهمّ من الروح. كلفة صالات الرياضة والـ«مَسّاج» أغلى من دور العبادة.

شغل التدريب الفنانة عن تقليم أظافرها. لذا تتساءل في أغنية: «هل يمكن للجمال أنْ يتجلّى في الرماد؟». نعم يمكن، إذا تمّ صَهْره ليصير قلب ماسٍّ كالذي كانت تضعه روز في «تيتانيك» (1997) لجيمس كاميرون. هذا التحوّل أفضل درس لمن يعشق دراسة الفن. ما أروع الإبداع والشهرة والإنجاز والاعتراف. يمنح الجمهور الفنان طاقة هائلة. حينها، يحبّ الفنان نفسه، فيبدع بطريقة أفضل. من دون جمهور، يتقهقر الفنان ويَيْبَس ويموت في عزلته، ويُحرم من العيش على سخاء شبّاك التذاكر.

حقّقت الشابة حلمها بأنْ تُصبح نجمة عالمية. هذا حلم الجميع. لا أحد يرغب في أنْ يكون نكرة. تعرض منجزها الفني العرض بحجّة تغيير الملابس. ثروة المغني صوته. إنّه توقيعه الحميم لعمله الفني. عانى عبد الحليم حافظ تغيّر صوته بسبب فيروس الكبد. هذا كلّ شيء. الفيلم فقير على صعيد اللغة السينماتوغرافية. هذا ريبورتاج سريع، تنقذه مقاطع الغناء من الملل. ما سبب هذا الفشل البصري؟ إنه مزدوج: استعراضي وإعلامي. أولاً: دِيون مغنية تُسمَع أكثر مما تُرى، بينما تحبّذ الكاميرا الشخصيات الاستعراضية.

في التسويق العصري الرقمي المُصوّر، تتفوّق الفنانة التي تُخاطب العين على تلك التي تُخاطب الأذن، قياساً إلى تفوّق الكاميرا على ميكروفون الراديو. هذا مثلٌ مُضاد لموديل في استعراض الجسد: المغنية تايلور سويفت، التي ترقص منحنيةً بفم مفتوح. الإغواء مُدوّ. منذ الثورة الجنسية، سرت مزاعم أنّ تحليلات فرويد فَقدت تأثيرها. لكنْ الموضة والفضائح تُثبت أنّ الإنسان الحديث لم يتحرّر من الـ«ليبيدو»، ولن يتحرّر منها إلّا إذا ذاق وشبع.

ثانياً: دِيون تغنّي، وليس في حياتها أزمات شخصية وعاطفية. لم تفشل في علاقة عاطفية مع لاعب كرة سلة، يكسب مليون دولار أميركي شهرياً. تنبع شهرتها من عملها الفني، لا من توالي الفضائح. ليست لديها أخبار وصُور وملابس مُغرية، كالشابّة الشقراء طويلة القامة، سويفت.

بحسب أوسكار وايلد، في مقدّمة روايته «صورة دوريان غراي» (1891): «غاية الفن أنْ يكشف عن نفسه، ويُخفي شخصية الفنان». الفنّ مهمّ لا شخص الفنان. لكنْ، ليس هذا حال الجميع. الفنان على المنصّة أعظم من الفنان في غرفة نومه. لكنْ، في زمن الصورة، تغيّرت معايير فنية كثيرة.

سيلين ديون: كنتُ فنانة رائعة (Griffin/FilmMagic ـ Axelle/Bauer)

> تعيش ديون أداءها وتمسرحَه قليلاً رغم تقدّمها في العمر

وملابسها في كلّ حفل. لا ترتدي الثوب مرّتين، لأنّه مميز وعظيم. يبدو هذا رثاءً باكراً. الأهمّ عرض مراحل النجاح لتكون قدوة لحالمين بالشهرة. تعيش دِيون أداءها. تمسرحه قليلاً رغم تقدّمها في العمر. فجأة، بسبب تغيّر الصوت، توقف

أفلام جديدة

■ Between The Temples لناثان سيلفر، تمثيل جايزون شوارتزمان وكارول كاين (WireImage): يعيش بنجامِن غوتليب في منزل والدته، منذ وفاة زوجته قبل عام. منذ ذلك الحين، يمرّ في فترة صعبة للغاية، خاصة أنّه بدأ يفقد صوته تدريجياً، هو الذي يُغنّي في كنيس الحيّ حيث يسكن. هذا كلّه دافعٌ له إلى طرح تساؤلات عن الحياة والوجود، وعن مكانة الدين في يومياته.

■ You Can't Run Forever لميشيل شوماخر، تمثيل جي. كاي. سيمونس وآلين ليش وفرناندا أورِّيولا (Getty): شابّة تعاني قلقاً شديداً منذ أعوام، ومحاولات علاج هذا القلق تبوء بالفشل. ذات يوم، تشعر أنّ رعباً بدأ يتملّكها، ما جعل القلق يشتدّ عليها. سبب ذلك؟ هناك قاتل متسلسل يظهر فجأة في حياتها، بعد أنْ اختارها لتنفيذ جريمة قتل جديدة يُضيفها إلى سجله الدموي.

■ Boneyard لأسيف كاباديا، تمثيل مِل غيبسون وكورتيس جاكسون وبراين فان هولت ونورا زهاتْنر (WireImage): يتعاون قائد شرطة ومخبر سرّي مع عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي لتعقّب قاتل متسلسل ترك بقايا هيكل عظمي في صحراء نيو مكسيكو. لكنّ هؤلاء الثلاثة سيواجهون مشاكل شتّى، إذْ تتعارض أجنداتهم وأساليبهم، وتُثير مجموعة متشابكة من المؤامرات الشكوكَ في كلّ الاتجاهات.

■ Planete B لأودْلِيا رابن، تمثيل أديل إكزاركوبولس وسهيلة يعقوب (Getty) وإنديا هير ومارك باربي: في غرونوبل عام 2039، ينهار المجتمع والدولة. يعيش الشباب، خاصة الناشطين بينهم، حالة اضطراب. ذات ليلة، يختفي هؤلاء فجأة بعد مظاهرة. يُقتل ضابط شرطة، وتستيقظ ناشطة تدعى جوليا بومبارث في عالم مجهول: الكوكب ب. تجد نفسها في مواجهة عالم سجن فريد من نوعه، مُصمّم لإعادة تثقيف الشباب.

■ A Quiet Place: Day One لمايكل سارنوسكي، تمثيل لوبيتا نْيونغو وإليان أوميهير (Getty): سميرة شابّة في المرحلة النهائية من مرض سرطاني. تذهب إلى مسرح في نيويورك مع قطتها. فجأة يبدأ تساقط أجسام تُشبه النيازك. يفهم الناجون أنّ المخلوقات حسّاسة جداً على الضوضاء. بعد الفوضى، تحاول سميرة العثور على قطتها. لديها هدف واحد: تناول بيتزا أخيرة في مطعم باتسي. تلتقي إريك الطالب البريطاني، ومعاً يحاولان الوصول إلى ميناء، تغادر منه قوارب ناجين.